الرحلة الإلهية بين إبراهيم عليه السلام
و حي بن يقظان في البحث عن الحق
(دراسة مقارنة: التعبير القرآني و الأسطوري)

فريدة ألفي نعيمة

مصلحون

faridaulvi@gmail.com
muslihunmaksum@yahoo.com

مدرسان بجامعة كياهي الحاج عبد الحليم موجوكرطو في الشعبة الأحوال الشخصية

الملخص:

إن السؤال المركزي في هذا البحث العلمي تتمحور حول الرحلة الإلهية بين نبينا إبراهيم عليه السلام و قصة حي بن يقظان في رسالة ابن طفيل. استعمل الباحث في هذه الدراسة تعتمد على التحليل المقارن في البحث عن الحق بين إبراهيم عليه سلم وابن طفيل واعتمد الباحث على الاستقراء والتمثيل في بعض الكلمة المأخوذة من القرآن الكريم عن تاريخ إبراهيم و كتاب حي بن يقظان الذي ألفه إبن طفيل. هذا من ناحية، ومن ناحية الأخرى، لإكتشاف تعبيرهما، استعمل الباحث في دراسة النص التراثي بطريقة غادامير (Hans Georg Gadamer) لفهم ما تحيط بالرحلة الإلهية من خلال تعبير القرآن الكريم والرسالة الفلسفية، من المعروف، هرمينيوطيقا غادامير هو طبيعة "الفهم"، والمصطلح الألماني هو Verstehen, وغادامير يشدد على صلة هذا المفهوم الوثيق بـ"Verstandigung"، "أي بلوغ تفهم لشخص آخر"، و"الوصول إلى اتفاق مع شخص آخر"، وكذلك على الصلة الوثيقة بـ Eitverstandnis (الفهم، الإتفاق، الإجماع). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فتش الباحث ما وراء النص التراثي الذي كتبه ابن طفيل وقصة ابراهيم عليه السلام في القرآن الكريم من أبعد التاريخ مأثرا لهما التعبير الفني. إضافة إليه، لا تُفهم "نظرته" فحسب، إنما تُأخذ بعين اعتبار ما إذا كانت الطريقة في النظر إلى الموضوع

ذات مشروعية لنا أيضا. بهذا المعني فحتي "الفهم الذاتي Sichversthehen" لا يعني عن غادامير أن ينقل المرء نفسه باتجاه موضوع ما، إنما، بحسب الصيغة الألمانية، أن "يعرف المرء سبيله" في مساءلة معينة. لذا، يجب على الباحث أن يتكشف تعبير الرحلة الإلهية في القرآن الكريم في قصة إبراهيم عليه السلام و حى بن يقظان في رسالة ابن طفيل لأن هذه المشروعية مهِمّا جدّا لمن أتي بعده في بحث عن حقيقة الإلهية.

الكلمات المفتاحية: التعبير، القرآن، الرسالة، الإلهية، إبراهيم عليه السلام، حي بن يقظان.

أ. تمهيد

كون الإنسان في الأرض لا ينفصل من الرحلة الإلهية منذ أن خلقه من تراب الى مرور القرون للبحث عن حق الخالق في إطار الأذهان من كل النفوس--رغم أن بعض الناس يجنبون في أمور الغيبيات ويهتمون على ظواهر الكون وما فيها فحسب. طلب ما وراء الطبيعة بالملاحظات و التأملات من خلال أن الكون لا يمكن وجوده إلا بوجود الموجد سواء باستدلال العقلي أو الوجداني، كلاهما كوسيلة المعرفة الألهية. ومن ثم استدلال العقلي أو الوجداني منزلتهما كعقل التصاعدي و العقل التنازلي من مصطلاحات الفكرية عند حسن حنفي في الدراسات الإسلامية. المراد بالعقل التصاعدي هو معرفة الإنسان عن الإله من اكتساب العقل لترقية من الأدني إلى أفق الأعلى وعكسه يعني العقل التنازلي هو معرفة الإنسان عن الإله من الأعلى إلى الأدنى. لا شيء من هذين المعرفتين إلا لنيل تحقيق الإله الواحد القهار.

انطلاقا من تاريخ البحثي عن الحق بين إبراهيم عليه السلام وابن طفيل الذان يتأملان في الأكوان و خالقها حين بدا شك الربوبية، ثم يأتيان عن تصوير الإله بالبرهان العقلي

منطقيا عقلانيا لمن ألحد أو أشرك الإله. ومن العجيب، . بعد البحث عن حق الحقائق مسافة طويلة يقف إبراهيم عليه سلم و إبن طفيل في المنزلة المختلفة, كان إبراهيم عليه السلام نبيا و إبن طفيل فيلسوفا. هذه المنزلة تأدي إلى كيفية البحث عن الحق حتى تترقي إلى المعرفة العظمي بين كلا منهما.

أ. أسئلة البحث

1. ما هو كيفية البحث عن الحق بين إبراهيم عليه السلام وابن طفيل؟
2. هل كل الإنسان له القوة الجذبية لنيل المعرفة الإلهية كمنزلة الأنبياء بعد البعث عن الحق بمسافة طويلة؟

ج. المنهجية

أولا, كما ذكر الباحث في هذه الدراسة تعتمد على التحليل المقارن في البحث عن الحق بين إبراهيم عليه سلم وابن طفيل واعتمد الباحث على الاستقراء والتمثيل في بعض الكلمة المأخوذة من القرآن الكريم عن تاريخ إبراهيم و كتاب حي بن يقظان الذي ألفه ابن طفيل.

ثانيا, جمع المعلومات بالرجوع الى الكتب المتوفرة من التراث الإسلامية المتعلقة بهذه الدراسة: الكتب الفلسفية, والدراسة العلمية السابقة, وكلها حسب قدر استطاعة الباحث في تفتيش المعلومات.

د. شخصية إبراهيم عليه السلام وابن طفيل

د.1. إبراهيم عليه السلام

هو إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ إبن سام بن نوح عليه السلام. هذا نص أهل الكتاب في كتابهم, وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي. وحكى الحافظ ابن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه عن إسحاق بن بشر الكاهلي صاحب الكتاب "المبتدأ" أن اسم أم إبراهيم "أميلة" ثم أورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة وقال الكلبي: إسمها "بونا" بنت كربتا بن كرئي، من بني أرفخشذ بن سام بن نوح.

ولما كان عمر "تارخ" خمسا وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام, وناحور وهاران, وولد لهاران "لوط". وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط، و أن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها، وهي أرض الكلدانيين، يعنون أرض بابل.[1] نقل الباحث من قصص الأنبياء لآبن كثير في نسب إبراهيم عليه السلام. ولكن هذا النسب مختلف في الروايات اعتمادا من ذلك من قول رمضان البوطي في فقه السيرة النبوية حيث قال: أما نسبه (محمد) صلي الله عليه وسلم، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ويدعي شيبة الحمد، إبن هاشم بن عبد مناف واسمه المغيرة، ابن قصي ويسمي زيدا، ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن بضر بن نزار بن معد بن عدنان. فهذا القدر المتفق عليه من نسبه الشريف صلي الله عليه وسلم، *أما فوق ذلك فمختلف فيه لا يعتمد عليه في شيء.* كما روي مسلم بسنده عن رسول الله صلى عليه وسلم أنه قال: إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفي قريشا من كنانة واصطفى هاشما من قريش واصطفاني من بني هاشم.[2] من المعقول، كان نسب

[1] . إبن كثير، قصص الأنبياء، تحقيف: الدكتور عبد الحي الفرماوي أستاذ التفسير و علوم القرأن بجامعة الأزهر, (القاهرة: دار الطباعة و النشر الإسلامية، 1998)، 168.

[2] . رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية, (مصر، دار السلام, 2010) ، 44.

إبراهيم مختلف فيه بين الرواية بنسبة اسم أبيه بين تارخ (منهم قرأ بالحاء) و آزر. وجه الاستدلال من هذا الاسم في قوله تعالي: وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك و قومك في ضلال مبين. (الأنعام:74). وهذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم آزر و جمهور أهل النسب منهم إبن عباس على أن اسم أبيه تارح و أهل الكتاب يقولون تارخ بالخاء المعجمة فقيل إنه لقب بصم كان يعبده إسمه آزر. ثم قال إبن كثير نقلا من قول ابن جرير الطبري والصواب أن اسمه آزر[3] ولعل له اسمان علمان أو أحدهما لقب و الآخر علم. وهذا الذي قاله محتمل.[4]

د.2. إبن طفيل

كانت ولادة أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي سنة 500 هجرية الموافق 1106 ميلادية في وادي آش قرب غرناطة، وقضى أكثر أيام حياته الأولى يدرس ويداوي الناس، ثم اشتغل كحاجب في غرناطة، أي كوزير في حكومة غرناطة.[5] وفي الحكاية أيضا، وقد تقلد عدة مناصب من بيتها أنه كاتبا لحاكم ولاية غرناطة وحاكم ولاية طنجه، كما كان طبيبا لأحد خلفاء دولة الموحدين، وهو أبو يعقوب يوسف. وقد نال إبن طفيل عند الخليفة أبي يوسف مكانة كبيرة، لقد كان من أكثر العلماء حظوة عند هذا الخليفة، يقول عبد الواحد المراكشي: كان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له، بلغني أنه كان يقيم في القصر عنده أياما ليلا و نهارا لا يظهر، وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر في ذاته و أدواته. وتوجد كثير

[3] . إبن الجرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرأن، الجزء الثالث, (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994) 287
[4] . إبن كثير، البداية و النهاية، الجزءالأول، (بيرزت: مكتبة المعارف، 1990) 142.
[5] .مصطفي غالب، إبن طفيل، (بيروت: دار مكتبة الهلال، 1991)، 13.

من الأدلة التي تبين لنا إهتمام هذا الحاكم بالعلم و العلماء، ونكتفي بذكر بعض هذه الأدلة:

1. كان هذا الخليفة حريصا على أن يجمع الكتب من أقطار الأندلس و المغرب، ويبحث أيضا عن العلماء، حتى كان لديه بالبلاط مجموعة من العلماء لم تجتمع لملك قبله ممن ملك الغرب.
2. مقابلة تمت بين هذا الخليفة و بين ابن رشد الفيلسوف الأندلوسي، وتكتشف هذه المقابلة عن مدى اطلاع على الكتب الفلسفية.[6]

ومن المعروف أن ابن طفيل صنف في الطب كتبا، وأنه كانت له آراء مبتكرة في الفلك، وقد ذكر البطروجي أنه أخذ قوله في الدوائر الخارجية والدوائر الداخلية من ابن طفيل. ولم يبقى لنا من مؤلفات إبن طفيل إلا رسالة "حي بن يقظان" أو "أسرار الفلسفة الإشراقية" و قد ترجمه بوكوك " pockockpe الى اللاتينية بعنوان "الفلسفة المعلم نفسه philosohus autodaction ونشره في سنة 1671. وترجمه الى الإسبانية بويجيس في سنة 1910 و إلى الفرنسية ليون جوتييه في العام نفسه. وتبدأ الرسالة بموجز مفيد هام لتاريخ الفلسفة في الإسلام يمتدح فيها ممن تقدمه ابن سينا وابن باجة و الغزالي.[7]

هـ. رحلة إلهية إبراهيم عليه السلام

هـ.1. البحث عن الحق

[6] . عاطف عراقي، الميتافيزيقا في فلسفة إبن طفيل، (القاهرة: دار المعارف، 1992)، 33.
[7] . إبن سينا، و إبن طفيل، و السهروردي، حي إبن يقظان، تحقيق و تعليق أحمد أمين، (بيروت، دار المدي للثقافة و النشر، 2005)، 13.

بعد ولادة إبراهيم عليه السلام وكتمانه من الملك نمروذ من قتل كل غلام في ذلك الوقت حتى نسى ذكر ذلك فقال آزر: إن لي إبنا قد خبأته أفتخافون عليه الملك إن أنا جئت به؟ فقالوا: لا فانطلق، فأجرجه من السرب، فلما نظر إلى الدواب وإلى الخلق ولم يكن رأي قبل ذلك غير أبيه وأمه، فجعل يسأل أباه عما يراه فيقول أبوه: هذا بعير أو بقرة أو غير ذلك فقال: ما لهؤلاء الخلق بد من أن يكون لهم رب؟ وكان خروجه بعد غروب الشمس فرفعه رأسه إلى السماء فإذا هو بالكواكب وهو المشتري فقال: هذا ربي، فلم يلبث أن غاب فقال: لا أحب الأفلين. وكان خروجه في آخر الشهر فلهذا رأى الكوكب قبل القمر. وقيل: *كان تفكر وعمره خمسة عشر شهرا* وقال لأمه وهو في المغارة أخرجيني أنظر فأخرجته عشاء، فنظر فرأي الكوكب وتفكر في خلق السموات و الأرض وقال في الكوكب ما تقدم. فلما رأي القمر بازغا قال: هذا ربي فلما غاب قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين (الأنعام: 77) فلما جاء النهار وطلعت الشمس رأي نورا أعظم من كل ما رأي فقال: هذا ربي هذا أكبر. فلما أفلت قال: يا قوم! إني برئ مما تشركون.[8]

نتيجة إبراهيم عليه السلام برئ من اعتقاد أقوامه لا يمكن أن يكون قد فوجئ بأن النجم قد أفل، أو أن الشمس قد غابت ولكن كان يعلم ذلك جيدا. من هنا اليقين في داخل نفس إبراهيم على ثلاثة مراحل:

1. يقين بعلم من تثق فيه.
2. ويقين بعين ما تخبر به.

[8] . أبن أثير، الكامل في التاريخ، الجزء الأول، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987)، 73.

3. يقين بحقيقة ما تخبر به.[9]

بعد ما وجد اليقين في قلبه تخليا عن الفسد، أو الانقطاع عن العمل المفسد والدخول في العمل الصالح، قول إبراهيم عليه السلام :إني وجهت وجهي للذي فطر السموات و الأرض حنيفا (الأنعام: 89) فمعنى ذلك أنني توجهت لله الإله الحقيقي لهذا الكون خلق السماوات والأرض. ولكن لماذا استخدم إبراهيم عليه السلام السماوات والأرض كمظهر الكون، ولم يكن مثلا: إني توجهت للذي خلق النجوم و الكواكب و الشمس و القمر؟ قد أجاب شيخ الشعراوي على هذا السؤال بثالثة النقاط: *أولا* : لأن هذا التعبير أعم. *ثانيا* : لأنه ظاهر للناس جميعا لا يحتاج إلى دليل. *ثالثا* : لأنه لا أحد من البشر منذ بدء الخليقة حتى الأن زعم أنه هو الذي خلق السماوات و الأرض. *رابعا*: لأن خلق السماوات و الأرض يشعر بالقدرة و الخارقة للإله الذي خلق هذا كله.[10]

هـ.2. مراحل الدعوة لإبراهيم عليه السلام

بعد التفكر على أسرار الأكوان والذات الذي خلقها دعى إبراهيم عليه السلام إلى وحدانية الله ولا شريك له في صفاته و أفعاله و ذاته بمراحل الآتية من خلال قصص القرآن الكريم الذي عبره الله تعالي:

1. الدعوة إلى أبيه.

وقد ذكر الله عز وجل في القرآن الكريم: أتتخذ أصناما آلهة، إني أريك و قومك في ضلل مبين (الأنعام: 74). رجعنا إلى تفسير ابن جرير الطبري على

[9] . متولي الشعراوي، قصص الأنبياء ومعها: سيرة الرسول صلي الله عليه وسلم، (القاهرة: دار القدس، 2006)، 87

[10] . نفس المرجع، 89

هذا البيان بأن الخبر من الله تعالى ذكره عن قيل إبراهيم لأبيه آزر أنه قال: "أتتخذ أصناما آلهة"، تعبدها ربا دون الله الذي خلقك فسواك ورزقك؟ "إني أراك وقومك في ضلل مبين"، يقول: "إني أراك": ياآزر، "وقومك" الذين يعبدون معك الأصنام ويتخذونها آلهة. "في ضلال"، يقول: في زوال عن محجة الحق، وعدول عن سبيل الصواب. "مبين"، يقول: يتبين لمن أبصره أنه جور عن قصد السبيل، وزوال عن محجة الطريق القويم. يعني بذلك أنه ضل هو وهم عن توحيد الله وعبادته، الذي استوجب عليهم إخلاص العبادة بآلائه عندهم، دون غيره من الآلهة و الأوثان.[11]

2. الدعوة إلى قومه.

فلما بدا لإبراهيم أن يدعو قومه إلى ترك ما هم عليه و يأمرهم بعبادة الله تعالى ودعى قومه فقالوا: من تعبد أنت؟ قال: رب العالمين. قالوا: نمروذ؟ قال: بل أعبد الذي خلقني، فظهر أمره.[12]

استخدم إبراهيم بالمنطق العقلي و الحوار لوسيلة الدعوة إلى الله حينما أمر أبوه أن يبيع الأصنام فكان إبراهيم يقول: من يشري ما لا يضره ولا ينفعه، فلا يشتريها منه أحد، وكان يأخذها وينطلق بها إلى نهر فيصوب رؤوسها فيه ويقول: إشربي، إستهزاء بقومه. هذا من جانب القصة, والآخر وكان لهم عيد يخرجون إليه جميعهم وجعلوا طعاما بين يدي آلهتهم وقالوا: نترك الآلهة إلى حين نرجع فتأكله فلما نظر إبراهيم إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ألا تأكلون؟

[11] . إبن الجرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرأن، الجزء الثالث, (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، 288-287.
[12] . . أبن أثير، الكامل في التاريخ، الجزء الأول، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987)، 74.

فلما لم يجبه أحد قال: مالكم لا تنطقون؟ فراغ عليهم ضربا باليمين فكسرها بفأس في يده حتى إذا بقى أعظم صنم منها ربط الفأس بيده، ثم تركهن.

فلما رجع قومه ورأوا ما فعل بأصنامهم راعهم ذلك وأعظموه وقالوا: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين؟ قالوا: سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم (الأنبياء: 60-59) يعنون ويسبها ويعيبها ولم نسمع ذلك من غيره وهو الذي نظنه صنع بها هذا وبلغ ذلك نمروذ وأشراف قومه فقالوا: فأتوا به على أعين الناس لعلهم بشهدون (الأنبياء: 62) ما نفعل به، وقيل: يشهدون عليه، كرهوا أن يأخذوه بغير بينة فلما أتى به واجتمع له قومه عند ملكهم نمروذ وقالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون (الأنبياء: 63)، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (الأنبياء: 65)، أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من الله أفلا تعقلون (الأنبياء: 67).[13] أكّد إبراهيم بالحجة الحسنة حيث ذكر الله في القرآن الكريم: وحاجه قومه، قال: أتحجوني في الله وقد هدين، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء الله ربي شيئا، وسع ربي كل شيء علما، أفلا تتذكرون (الأنعام: 80). كلمة "أفلا تتذكرون" تدل على أن قضايا العقائد مأخوذة بالفطرة، ولكن إقبال النفس على الشهوات هو الذي يحاول أن تغطي هذه الفطرة فليس مطلوبا من الإنسان أن ينشئ فكرة عقائدية، ولكن المطلوب منه في قضايا الإيمان أن يتذكر فقط.[14]

3. الدعوة إلى الملك نمروذ.

[13] . نفس المرجع، 75

[14] . . متولي الشعراوي، قصص الأنبياء ومعها: سيرة الرسول صلي الله عليه وسلم، (القاهرة: دار القدس، 2006)، 90.

وبعد دعوة إبراهيم على قومه و أبيه، بلغ الخبر على الملك نمروذ بمجيء حجاج إبراهيم مع قومه عن آلهتهم. يقول الله تبارك وتعالى: ألم ترى إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتيه الله الملك إذ قال إبرهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أخي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين (البقرة: 258). كلمة "ألم تري" مكونة من ثلاثة الحروف وهي: الهمزة "أ" وحرف النفي هو "لم" و فعل منفي هو "تر". والهمزة تأتي هنا لشيء اسمه الإنكار، والإنكار نفي بتقريع، كأن تقول للأين على سبيل المثال: أتضربون أباك؟ إن الهمزة هنا جاءت لا لتستفهم وإنما لتنكر الفعل المثبت بعدها. وما دام الإنكار نفيا وقد دخلت الهمزة على فعل منفي فهي " نفي النفي" ونفي النفي إثبات. إذان، و معنى "ألم ترى" هي أنت رأيت. غاية هذه الأسلوب هي من أجل أن يكون أثر المعنى أوقع في نفس السامع، لأن مجيء الإثبات فقط قد يعطي أثر التلقين.[15]

هذه الأية الكريمة بهدف المجادلة و السفسطة، فألهم الله تعالى إبراهيم أن يقول حجة حتى بهت الذي كفر ولم يجرؤ على الرد على مقولة إبراهيم عليه السلام بالأية " فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب".

و. الرحلة الإلهية لإبن طفيل

و. 1.القصة القصيرة عن حي بن يقظان

ابن طفيل ليس أول من كتب القصة الخيالية باسم " حي إبن يقظان" بل سبقه ابن سينا و سهروردي في هذه الأسطورة. ولكن ركز الباحث على المبحث في قصة حي بن

[15] . نفس المرجع، 91.

يقظان لابن طفيل فحسب. وإليك موجز هذه القصة كما أورده غرسية خومس Garcia Gomez منقولا من تحقيق أحمد أمين لثلاثة القصص عن حي بن يقظان، يقول غرسية:

في جزيرة مهجورة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء. وفي وسط ظروف طبيعية طبيبة، تولد طفل من بطن أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على نر السنين دون أن يكون له أب أو أم، وفي قول آخر أن تيار البحر حمله على هذه الجزيرة في "تابوت أحكمت زمه (أمه) بعج أروته من الرضاع. وكانت أميرة مضطهدة في جزيرة مجاورة، فاستودعت ابنها الأمواج تنجيه من الموت. وهذا الطفل هو حي بن يقظان فتبنته غزالة وأرضعته وصارت له كأمه. ونما حي وأخذ يلاحظ ويتأمل وكان الله وهبه ذكاء وقادا فعرف كيف يقوم بحاجات نفسه بل استطاع أن يصل بالملاحظة و التفكير إلى أن يدرك بنفسه أرفع حقائق الطبيعة وما وراءها. وقد وصل ذلك بطريق الفلاسفة بطبيعة الحال. وأدت به هذه الطريقة إلى أن يحاول عن سبيل الإشراف الفلسفي الوصول إلى الإتحاد الوثيق بالله. وهذا هو العلم الغزير والسعادة العليا المتصلة الخالدة في وقت واحد. ولكي يصل "حي" إلى ذلك دخل مغارة و صام أربعين يوما متوالية. مجتهدا في أن يفصل عقله عن العالم الخارجي وعن جسده بوساطة التأمل المطلق في الله لكي يصل إلى الإتصال به، حتى أدرك ما أراد. وعندما بلغ ذلك المبلغ لقي رجلا تقيا يسمي "أبسال" أقبل من جزيرة مجاورة إلى هذه الجزيرة يحسبها خلاء من الناس. وقال أبسال بتعليم الكلام لصاحبه المنفرد بنفسه والذي لقيه دون أن يتوقع ذلك. ولم يلبث أن وجد في الطريق الفلسفي الذي إبتكره حي لنفسه تعليلا علويا للدين الذي كان يعتقده. وتفسيرا كذلك لكل الأديان المنزلة. ثم أخذ أبسال

صاحبه إلى الجزيرة المجاورة. وكان يحكم ملك تقي يسمى سلامان (وهو صاحب أبسال الذي كان يري ملازمة الجماعة ويقول بتحريم العزلة). وطلب إليه أن يكشف (لأهل الجزيرة) عن الحقائق العليا التي وصل إليها. فلم يوثق. ووجد الأمر أن الحقائق الخالصة لم تخلق للعوام. إذ أنهم مكبلون بأغلال الحواس. وعرفا أن الإنسان إذا أراد أن يصل إلى التأثير في أفهامهم الغليظة، ويؤثر في إرادتهم المستعصية، فال مفر له من أن يصوغ آراءه في قوالب الأديان المنزلة. وكانت نتيجة هذا أن قررا اعتزال هؤلاء الناس المساكين إلى الأبد ونصحهم بالاستمساك بأديان أبائهم. وعاد حي وصاحبه إلى الجزيرة المهجورة لينعما بهذه الحياة الرفيعة الإلهية الخالصة التي لا يدركها إلا القلائل من الناس.[16]

و.2. تحليل القصة حي بن يقظان في البحث عن الحق

وبعد حضانة الغزالة على حي ونمي الجسد بتطور العمر صار صبيا. ذات يوم، أدرك حي إلى أن الغزالة أصابها الموت فسكنت حركتها بالجملة ولا تتحرك جسدها. فلما رأى الصبي على بدنها جرع جزعا شديدا على تلك الحالة. ثم تفكر حي ما الأسباب التي أصابها الموت ثم لاحظ حي على جميع أعضاء الأبدان. ذكر في القصة: فَلا يَرَى لَهَا عِنْدَ ذَلِكَ حَرَكَةٌ وَلا تَغْيِيْرًا فكانَتْ يَنْظُرُ اِلَى أُذُنَيْهَا وَاِلَى عَيْنَيْهَا فَلَا يَرَى اَفَةً ظَاهِرَةً وَكَذَلِكَ كَانَ يَنْظُرُ اِلَى جَمِيْعِ اَعْضَائِهَا فَلَا يَرَي شَيْءٌ مِنْهَا اَفَةً. وَكَانَتْ يَطْمَعُ اَنْ يَعْثُرَ عَلَى مَوْضِعِ الْاَفَة فَيَزِيْلُهَا عَنْهَا فَتَرْجِعُ اِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ, فَلَمْ يَتَأَتَّ لَهُ شَئٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا اِسْتِطَاعِهِ وَ كَانَ الَّذِيْ اَرْشَدَهُ لِهَذَا الرَأْيِ مَا كَانَ قَدْ اِعْتَبَرَهُ فِي نَفْسِهِ قَبْلَ ذَلِكَ. لِاَنَّهُ كَانَ يَرَى اِنَّهُ اَغْمَضُ عَيْنَيْهِ اَوْ حَجَبَهَا بِشَيْئٍ لَا يُبْصِرُ شَيْأً حَتَّي يَزُوْلُ ذَلِكَ

[16] . إبن سينا، و إبن طفيل، و السهروردي، حي إبن يقظان، تحقيق و تعليق أحمد أمين، (بيروت، دار المدي للثقافة و النشر، 2005)، 14-13.

العَائِقُ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَرَي أَنّهُ إِذَا أَدْخَلَ إِصبِعَيهِ فِي أُذُنَيهِ وَسَدّهَا لَا يَسْمَعُ شَيْئًا حَتي يَزولَ ذَلك العَارِض، وَإذا أمسكَ أنفُه بيدِه لا يشمُّ شيئًا مِن الروائح حتي يفتح أنفَه. فأعتقدَ من أجل ذلك أن جَميع مالِه من الإدراكاتِ و الأفعالِ قد تكونُ لها عوائقٌ تعوقها، فإذا أزيلت تلك العوائق عادت الأفعال.[17]

ثم فعل حي شق العضو بالقصب اليابسة أشباه السكاكين لتكسير جسد الغزالة، ما وجد حي مركز تحرك الأعضاء حتي فتش لحم القلب ما زال مقنيعا علي أسباب ألتي يأديها الموت وفكر مرات على الجسد فأعتقد علي أن ذلك شيئ مرتحل وعنه كانت تصدر تلك الأفعال كلها.

فنظر وتفصح جميع الأجسام التى في عالم الكون و الفساد: من الحيوانات على اختلاف أنواعها، والنبات و المعادن وأصناف الحجارة و الترات و الماء و البخار و الثلج و البرد والدخان واللهيب و الجمر وكلها وجدت بقوة الروح وأن ذلك الروح واحد في ذاته، وهي حقيقة الذات، وسائر الأعضاء كلها كلآلات فكانت تتحد عنده ذاته بهذا الطريق،[18] وهذا الكون و الفساد يليقان بالصورة. أتى الباحث كلام ابن طفيل بالمنطق العقلي في قصة حي بن يقظان فيما يلي:

"فأول ما نظر إلي الماء فرأي أنه إذا خلي وما تقتضيه صورته، ظهرت منه برد محسوس، وطلب النزول إلي أسفل فإذا سخن إما بالنار وإما بحرارة الشمس، زال عنه البرد أولا وبقي فيه طلب النزول، فإذا أفرط عليه بالتسخين، زال عنه طلب النزول إلى أسفل. وصار يطلب الصعود إلى فوق. فزال عنه بالجملة الوصفان الذان

[17] . عبد الحليم محمود، فلسفة إبن طفيل ورسالته، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية).76-75
[18] . نفس المرجع، 84.

كانا أبدا يصدران عن صورته، ولم يعرف من صورته أكثر من صدور هذين الفعلين عنها. فلما زال هذان الفعلان بطل حكم الصورة، فزالت الصورة المائية عن ذلك الجسم عندما ظهرت منه الأفعال من شأنها أن تصدر عن صورة أخرى، وحدثت له صورة أخرى، بعد أن لم تكم، وصدر عنه بها أفعال لم يكن من شأنها أن نصدر عنه وهو بصورته الأولى. *فعلم بالضرورة أن كل حادث لابد له من محدث، فارتسم في نفسه بهذا الاعتبار، فاعل الصورة، ارتساما علي القموم دون تفصيل.*[19]"

ولا يمكن الوجود في السماوات و الأرض قائما بنفسه دون الفاعل لأن وجود الشيئ مع علته إن لم تكن علة لم يكن العالم فالكون موجود بوجود علة الفاعلة من العدم الى الوجود. ولابد هذه الفاعلة كمال مطلق وواجب الوجود في ذاته وهو العلم وهو القدرة وهو البهاء وهو هو "وكل شيء هالك إلا وجهه".

إن كان المقام بتنزه المحسوسات من الكون و الفساد سيرى أن العالم كلها فناء و البقاء لله عز وجل و الوجود الحقيقي هو الله لا غيره. فقال ابن طفيل في كلامه عن عجائب المشاهدة:

"إنه لما فنى عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير في الوجود إلا الواحد الحي القيوم، وشاهد ما شاهد، ثم عاد إلى ملاحظات الأغيار عندما أفاق من حاله تلك التى شبيهة بالسكر، خطر بباله أنه لا ذات له يناير بها ذات الحق تعالى، وأن حقيقة ذاته هي ذات الحق."[20]

[19] . نفس المرجع، 92
[20] . نفس المرجع، 116.

من العقل المستنير ترتقي معرفة الإنسان من المحسوسات إلى المغيبات التي كانت ما لا عين رأت و لا أذن سمعت وما خطر بقلب البشر. إذا وصل الأحد على هذا المقام أطلع عليه العلم الموهب من الله عز وجل.

ز. مقارنة البحث عن الحق بين إبراهيم عليه السلام وابن طفيل

إبراهيم عليه السلام نبي أرسل الله عز و جل على قومه لينذرهم من الهلك و الظلم لكي أصبحوا ملفتا إلى دين الحق، ولكن قبل زمن بعثة الرسول كان إبراهيم عليه السلام يبحث عن الحق الربوبية في آية الكونية من الشمس و القمر ما وجد الشيء إلا الآفلين، وأكد إبراهيم عليه السلام علي أن الآلهة المعبودة من قومه ليس حق الحقائق من فاطر السماوات و الأرض، واعتقد إبراهيم عليه السلام بالدين مختلفا بأبائهم الذين يعبدون الأصنام و النجوم لأن هذه الآلهة لا يقبلها العقل السليم. من الطبيعي، رد إبراهيم عليه السلام على آلهتهم بالمناظرة الحسنة بل قلوبهم مختوم حتى أتى الله عز وجل معجزا ليهديهم إلى صراط المستقيم.

وهكذا ما جري به حي بن يقظان في قصة الأسطورية عند ابن طفيل بأن حي حاول ان يدرك ما هو علة العلل من الكون و الفساد. من أمور المعلوم عقليا كل الوجود لابد من الموجد حتي وجد الموجود. وكل الوجود مفتقر إلى علة الفاعلة من العدم إلى الوجود وهو قيام بنفسه لا يحتاج على ما سواه بل كل ما سواه يحتاج إليه وهو الفاعل المطلق.

هذا من جانب، ومن جانب الآخر العالم وما فيه متناهي بحدود الروح الذي يليق في الأجسام أو المواد من سائر الموجودات لان الروح هو الجسم الأول في داخل المواد تنمو و تتغدي وتتحرك وتنطق على جميع مسؤولية الوظيفة الروحانية إذا ارتحلت

الروح أصبحت الأجساد سكونا. وهكذا الموجود كونه فان وهالك إلا ذاته المطلق وهو الله عز و جل. إذا أراد الإنسان مشاهدة الإلهية وجب عليه أن يعترف على نفسه بأنه لا شيء في وجه الله تعالى. ومقام المشاهدة لها مراتب في درجة من الدرجات لا يستوي بعضهم بعضا، الدرجة العالية هو رسل الله ثم تندرج تحتها الأنبياء و تليها الولاية وبعدها عامة الناس. وهذه الطبقات مقدر من الله تعالى وأيضا كما جرّب حي بن يقظان لنيل المعرفة الإلهية معه المقام الذي لا يعرف أحد إلا الله تعالى.

على كل حال، الرحلة الإلهية إبراهيم عليه السلام و حي بن يقظان تتمثل على محاولة المعرفة الحقيقية من درجة السفلى إلى العليا حتى وهب الله تعالي حق اليقين أو بنفس العبارة من العقل التصاعدي إلى العقل التنازلي.

الخلاصة

كل أناس لها القوة الجذبية إن دافعها عن المعرفة الإلهية لأن فطرة الإنسان هو مؤمن باله (*homo-religious*) بالطبع. بل بعد الولادة تتأثر بالمجتمع التي تحيطها إن كان المجتمع عابدين إلى رب العالمين فرجعت إلى فطرتها وإلا فلا. بالدليل من القرأن الكريم: ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا. أو جاء من الخبر: كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يُهَوِّدَانِه أو ينصرانه أو يمجسانه. و أكد ذلك الفطرة بقصة الأسطورية عند ابن طفيل تحت العنوان حي بن يقظان و قصة إبراهيم عليه السلام حينما رد على قومه في عبادة الأصنام و النجوم.

قائمة المراجع

إبن كثير، قصص الأنبياء، تحقيف: الدكتور عبد الحي الفرماوي أستاذ التفسير و علوم القرأن بجامعة الأزهر, (القاهرة: دار الطباعة و النشر الإسلامية، 1998)
رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية, (مصر، دار السلام, 2010)

إبن الجرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرأن، الجزء الثالث, (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)
إبن كثير، البداية و النهاية، الجزءالأول، (بيرزت: مكتبة المعارف، 1990)

مصطفي غالب، إبن طفيل، (بيروت: دار مكتبة الهلال، 1991)

عاطف عراقي، الميتافيزيقا في فلسفة إبن طفيل، (القاهرة: دار المعارف، 1992)

إبن سينا، و إبن طفيل، و السهروردي، حي إبن يقظان، تحقيق و تعليق أحمد أمين، (بيروت، دار المدي للثقافة و النشر، 2005)
أبن أثير، الكامل في التاريخ، الجزء الأول، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987)

متولي الشعراوي، قصص الأنبياء ومعها: سيرة الرسول صلي الله عليه وسلم، (القاهرة: دار القدس، 2006)
عبد الحليم محمود، فلسفة إبن طفيل ورسالته، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية)